شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥٨

سنن النصر والتمكين (٤)

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

سنن النصر والتمكين (٤) [١] ١

- الحد الأدنى من سنن النصر والتمكين ٢
- لمن يتوجه الخطاب ؟ ٧
- الاجتماع مع الطوائف ٩
- التخفف من الذنوب..... ١٢
- سلبيات العجلة ١٤
- الصبر والتريث ١٦
- التدرج ١٧
- الركون إلى الأعداء.....١٨

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=bfYPeS2Q5FA

الحد الأدنى من سنن النصر والتمكين

يجب أن نعلم أن الله ﷻ خلق كل شيء في الكون وجعله يسير وفق نظام وسنن دقيق وأنه حينما أوجد السنن الشرعي الذي أمر العباد بسلوكه جعل السنن الشرعي دارج ضمن نظام الكون ؛ ولهذا جعل الأنبياء يجرون وفق هذه الأسباب وجعل ما لا يدركه العقول من أبواب الإعجاز يقتبس من هذه السنن .

ولهذا لا يجري الله نتيجة إلا وجعلها تدور وفق سبب محكم علمه البشر أم لم يعلمه لهذا تجد في دوائر الإعجاز ما يأمر به الله ﷻ النبي أن يسلك سبب من الأسباب ولو كان قليلاً وهنا موضع الإعجاز يعني حتى الإعجاز لابد فيه من سلوك سبب كوني والمراد بهذا أن الله تعالى حينما يأمر نبي من أنبيائه أو ولي من أوليائه يأمره باتخاذ سبب ولو يسير ليجري الله تحت هذا السبب أمور عظيمة ، هذا نجده في قوله ﷻ لموسى ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ ﴾ (الشعراء : ٦٣) حينما يقول قائل ضرب موسى للبحر لا تؤثر في البحر ، نقول لكن هذا الحد الأدنى الذي يتخذه موسى جعله الله ﷻ سبب مقابل لهذا الأثر العظيم ، فالعصا لا تؤثر في البحر ولكن هذا الحد الأدنى الذي يستطيع موسى الأخذ به ، والأسباب البسيطة إذا كان منها النتائج المادية العظيمة فلا تكون إلا في أبواب الإعجاز ؛ ولهذا حينما أمر الله ﷻ مريم ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣)فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤)وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) ﴾ (مريم : ٢٣-٢٥) قلما يستطيع الإنسان أن يهز النخل ليتساقط التمر وذلك لشدته فكيف بمن جاءها المخاض !، لكن لابد من الأخذ بالسنن الكوني ولو كان شيء يسير فأخذ السبب لابد أن يسبق ورود الأثر ؛ فبرغم كون المخاض يضعف عن هز

الشجرة لكن لابد من أخذ السبب لورود الأثر ، وكما في قوله ﷻ ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ (البقرة : ٦٠) أمر الله ﷻ موسى لما استسقاه لقومه لما كانوا في التيه أمره أن يضرب بعصاه الحجر ، والحجر لا يخرج منه ماء أو قطرة ماء فضلًا عن أن تنفجر منه العيون ولكن الله أمر بالضرب على ذات الحجر ليخرج منه سبب والله قادر على أن يخرجه بلا سبب كما أوجده من عدم ؛ ولكن الله ﷻ جعل دائرة الكون تدور على نظام سببي محكم حتى لا يتواكل الناس أو يتعلقون بالوهميات ولذلك يقول العلماء في الأمور المفضية للشرك: كل سبب لم يدل الدليل الشرعي على كونه سبب ولم يثبت بالحس على أنه سبب فذلك وسيلة للشرك ، مثل الذين يتعلقون بالأبراج إذا كان فلان برجه كذا وبرجه كذا فإن من أفعاله كذا وكذا ، نقول هل دل الدليل الشرعي على هذا فهذا جعل سبب لم يجعله الله سبب ، وهو نوع من أنواع الشرك ، فلابد من وجود الأسباب المادية ولو قلت ولكن ما هو المقدار الذي به نعرف أن هذا القدر السببي يكفي للوصول للنتيجة .

هناك أسباب يسيرة جدًا لا تكون إلا للأنبياء ؛ ولهذا ليس لأحد من الأولياء أن يواجه أمة كافرة ويظن أن معه عصا كعصا موسى سيهلك بها الناس فيفلق بها البحر ، فهذا لا يكون إلا للأنبياء لكن لما ضعف الأمر السببي بشدة في مقابل السبب الشرعي فكان موضع إعجاز ، فلابد من بذل الأسباب والقرب من الله في الأسباب الشرعية والأسباب الحسية لابد أن توازيها كذلك ، والله ﷻ قادر على أن ينصر الأنبياء من غير سبب وإنما جعل هذه الأسباب ولو كانت يسيرة حتى لا تخرج عن نظام الكون وحكمة الله في الإيجاد ؛ لهذا أمر الله الضعفاء بالأخذ بأسباب النصر حتى يمكّن الله لهم فلا يتواكلوا ، ولهذا يقول ﷻ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج : ٣٩) يقاتلون في الأرض فيجب عليهم أن ينتصروا لأنفسهم والله قادر على نصرهم من غير أن يأخذوا سبب فإذا أمرهم بالأخذ بأدنى سبب وهم ضعفاء فهذا حتى لا يخرج الناس عن السبب الكوني فلابد من وجود السبب الكوني حتى لا يختل نظام الكون .

لكن ما هو المقدار من السبب الكوني الذي يكفي للأخذ بالسنن الشرعي ؟

هذا هو الفرق بين منهج أهل السنة والجماعة وغيرهم فتجد بعض أرباب المخرفين من الصوفية وغيرهم يتخيلون أنهم يطيرون في الهواء فيهلك الله ﷻ بفعلهم ، وأن هناك ثمة أقطاب وأوتاد في الأمة يؤثرون في الأمة ويحركون الكون ، وهذا موجود كذلك لدى الرافضة وغيرهم فيظنون أن الإمام المعصوم حينما يتكلم بكلمة سينقلب الكون ونحو ذلك !!!.

نقول هذه الأمور لا تكون إلا في أبواب الإعجاز ولا تكون إلا للأنبياء وهم أعلى خلق الله وأما بالنسبة لغيرهم ومن دونهم فإن سلكوا نفس الأسباب فيأخذ العصا فيضرب البحر فلن يحدث شيء ولا يكون هذا إلا للأنبياء لأنه لما ضعف الجانب المادي تحقق الإعجاز وأما من غيرهم يرتفع الجانب المادي فلابد من الأخذ بالأسباب المادية أكثر فبدلا أن تكون عصا يضرب بها أن يتخذ عدة وسلاح وعتاد فينتصر على الكفار .

فلابد من الموازنة بين السنن الكوني والشرعي ، والضابط الشرعي أن نُحرج من هذا دائرة الإعجاز ثم تأتي أبواب أولياء الله في أبواب الكرامة ومنها ما جاء عن عمر بن الخطاب عليه رضوان الله (فبينا عمر يخطب الناس يومًا قال: فجعل يصيح وهو على المنبر: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، قال فقدم رسول الجيش، فسأله فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمنا، فإذا بصائح يصيح: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله)[٢] والقصة فيها كلام وقد جاءت من طرق متعددة ومنهم من يحسّنها ومنهم من يضعفها إذا شدد في أبواب الأسانيد ولا أرى أنها تثبت من جهة الأسانيد لأن فيها مجاهيل ولكن يقولون شهرتها تغني عن إثبات إسنادها وهذا له مباحث في أبواب السير والمغازي عند العلماء .

[٢]) رواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (٧/١٣٣٠) ، والبيهقي (٣٧٠/٦) ، وابن عساكر (٢٠/٢٤) .

ومثل هذا الأمر له مراتب أخرى يضعف فيها الجانب المادي لكنه لا يتلاشى فلابد من وجود الأسباب المادية ولا نعطلها ، وهذا فيه الإيمان بالله وحكمته وقدرته أن يجري الكون وفق نظام دقيق ولهذا تجد أن الكافر الذي أخذ بالأسباب المادية ينتصر على من عطّل الأسباب المادية ولو أخذ بالأسباب الشرعية وكانت أقوى لديه فربما يستبيح أعراضهم ودماءهم لأن السبب الكوني والسبب الشرعي لابد من الموازنة فيهما ، وثمة أسباب شرعية أنزلها الله ﷻ من أحكام شرعية وأوامر وتعلقات إذا ضعف السبب المادي عوضه الله بالسبب الشرعي ولكن إذا انعدم السبب المادي فلا يكفي السبب الشرعي إلا مع نبي معصوم منصور فتجد من الأنبياء من نصره الله بعصا وهذا أدنى مراتب الأخذ بالاسباب المادية وتجد من له كرامة كمريم عليها السلام ما ليس لغيرها .

والبعض قد يغلو في الأسباب المادية ويهمل الجانب الشرعي وطوائف أخرى تعظم الأسباب الشرعية وتهمل الجوانب المادية ، فربما يقاتل بأدنى سلاح فيريد أن يقرب من جوانب الأنبياء بالعصا وباليد ويتمثل بقوله ﷻ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال : ١٧) وقوله كذلك في العصمة﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة : ٦٧) ﷻ ، وكذلك الكفاية ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر : ٣٦) وهذه مرتبة للنبي ﷺ ليست لغيره وهي مرتبة لابد أن يتحقق فيها النصر فالنصر يكون للنبي بأدنى سبب مادي ، كما قال تعالى﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة : ٤٠) فهذا لنبي ولو كان فرد واحد .

وأما غير الأنبياء أمروا بالأخذ بالاسباب المادية لأن موضع الولاية والعصمة يختلف معهم ، والأمة الوسط هي التي تدرك قيمة منزلة السنن الشرعي ومنزلة السنن الكوني الذي لابد من الأخذ بهما ومعرفة المقدار التي تقوى بها الأمة فقد يكون مع الأمة عصا فقط ولديها من السنن الشرعي التام لكن لا يصح لها المواجهة بها كما نصر الله ﷻ موسى فلابد أن تبحث عن سبب مادي أعظم ، وهذه ينظر إليه كلٌ بحسب الحال ويدخل في أبواب المقابلة وما هي القدرة ؛ ولهذا وكل الله ﷻ الأمر للعباد بما يستطيعون يقول تعالى﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال : ٦٠) يعنى ما استفرغ

وسعه وكأن الكفاية تكون من الله ﷻ فيما تبقى وأما أن تتوانى وأنت في وسعك أن تفعل ثم لا تفعل ثم تريد الكفاية بالسنن الشرعي ، فإن هذا تعطيل للسبب الكوني الذي أمرك الله بالأخذ به ; ولهذا إذا بذلتَ الأمة ما تستطيع في السنن الكوني وكان الباقي محل عجز مع تمام السنن الشرعي فإن هذا من تمام العبودية فإن الله ينصرها لذا قد تُنصر قلة مؤمنة وتُهزم كثرة والسبب هو اختلال أبواب الموازنة وربما يتعلق في الجانب الباطن من الإيمان والعبودية فلابد من النظر فيه أيضًا فهذا من مواضع الاعتبار التي ينظر إليها فالسبب المادي لا يكون موضع نصر بالكلية ولم يجعل الله السبب الشرعي موضع نصر بالكلية بل جعل الله السببين فلابد من الأخذ بهما ليتحقق النصر .

وبعض المتعبدين يعطلون المادة وكأن الذي أوجد المادة خالق أخر غير الذي أوجد السب الشرعي وهذا من الخلل فمن أوجد الوحي هو الذي خلق المادة وجعلها على سنن وهذا السنن لابد منه من نتائج فحينما تعمل به تؤمن بحكمة الخالق مثلا في عملية حسابية نصف عشر العشرة يكون نصف فتكون النتيجة .

والنتائج تقتضي أن الذي أحكم الكون جعله وفق نظام محكم لا يمكن أن يخرج عنه فالعملية الحسابية الرياضية منذ أن أوجد الكون لأخر الزمان هي عملية واحدة والنتيجة واحدة والعمل به والإيمان به هو فرع من الإيمان بالله تعالى ، كما أمرنا الله ﷻ بالأخذ بها ويعوضنا حال ورود النقص فإن هذا يكون في مواضع الكمال في أبواب الأخذ بالأسباب والعبودية لله والإيمان به ربًا وإلهًا وكذلك الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته .

لمن يتوجه الخطاب ؟

الخطاب يتوجه إلى الجميع بالأخذ بالأسباب الكونية والأخذ بالأسباب الشرعية فالله تعالى قد وجه الخطاب للناس جميعا لكنه قد ينصرف إلى من ولي أمر من ولاية المسلمين سواء الولاية الصغرى أو الكبرى ، فلابد من أن يأخذ بالأسباب .

فينبغي على الحاكم أو الوالي إعداد العدة للأمة أيا كانت مواضع حاجتها وإقدامها يتولى ذلك ومن مسك زمام من زمام الأمور ولو كان في جماعة مجاهد في ثغر من الثغور لأنه يملك الولاية واستخراج الأسباب .

وأما العبودية فبابها أوسع لأنها يخاطب بها جميع الناس ، وهذا ينبغي أن يعلم أن الله ﷻ قد جعل عَقدَهُ مع أمة الإسلام بالتمسك بدينه ومهما بلغت الأمة من الأسباب المادية فإن الله لا يرفعها بمجرد السبب المادي لأن مقتضى الرفعة في بادئ الأمر كان لأجل الإسلام ولهذا العرب كانوا في الجاهلية كانوا في موضع استضعاف من الأمم من فارس والروم وبقية القبائل فأخرجهم الله من الصغار والذل إلى موضع التمكين وهذا الأمر نعلم به أن الله منذ أن أخرج العرب في موضع الذلة والصغار لم يجعل الله لأمة الإسلام قيادة وسلطان على دول العجم إلا بالإسلام وإنما ربما يكون لهم سلطان على فئة أو طوائف ونحو ذلك ، فلم يجعل لهم قوة في الماديات ولا العتاد على الأمم الأخرى وإنما رفعهم بالإسلام ، فالإسلام هو الذي أوجد في قلوبهم ما يتعلق بالأخذ بالسنن الشرعي فلما وجد مع شيء يسير من السنن الكوني كملت المعادلة وتحقق النصر .

لهذا في زمن النبي ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب عليهم رضوان الله تعالى لا توجد غزوة إلا وهم أقل من عدوهم ومع ذلك انتصروا لأن السبب المادي في ذاته ليس محل نصر فلابد للنظر إلى السبب الشرعي وتمامه وأما انتصار الأمم الكافرة فمعادلتها مادة

يقابل مادة م فبمقدار الخلل المادي ينصر الفريق الأخر ، ولهذا عمر بن الخطاب نظر لعزة الأمة أن سببها الإسلام فقال (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)[٣] فإذا غاب السنن الشرعي عن المسلمين وتقابل الجانب المادي بالمادي فالغلبة تكون للكفار بما لديهم من تفوق في الماديات ، وهذا مستمر إلى زماننا .

والأمم والدول من جهة الظلم والطغيان والبغي يجد أنه أكثر والسبب انهم لم يوجدوا ما استطاعوا من السنن الكوني أو الشرعي فإذا وجد خلل في أحد السنن الكوني أو السنن الشرعي فيوجد خلل في نتائج النصر .

وكذلك لابد من الأخذ بأوامر الله تعالى كما في قوله ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال : ٦٠) فثمة أمر بالاستطاعة إن أخللت به فهو ضرب من التقصير في الجوانب الشرعي وكذلك تقصير الإنسان في العدل والظلم بين الناس وكذلك العبادة .

وقد أمر الله جل جلاله الأنبياء بالعبادة قبل كثير من الأحكام الشرعية ليتوطنوا ويتكون لديهم ثوابت في الباطن ثم يصدروها لغيرهم .

والنصر يكون للحق والرسالة ليس للأفراد فقد ينصر الله تعالى الأمة ويبيد أكثرها وإنما ينصر الحق الذي هو معها ، وقد يبقي الله تعالى الأمة ولكن يجعلها مستضعفة ذليلة وسط الأمم فالعبرة ليست بالكثرة والبقاء وإنما بقاء الرسالة وحفظها والتمكين لها .

[٣]) أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٨٤) من طريق طارق بن شهاب

الاجتماع مع الطوائف

الشريعة قد أمرت بالاجتماع في جملة من كلام الله جل جلاله ولهذا يقول تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران :١٠٣) وكذلك جاء النهى عن الاختلاف والفرقة كما في قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران :١٠٥) وكذلك جاء في كلام النبي ﷺ في أحاديث كثيرة حث فيها على الاجتماع الاعتصام والتماسك فهو مما يجعل به النصر لأنها امتثلت أمر الله تعالى فشطر الاجتماع شرعي وشطره كوني .

فمن فعله معتمد على أن الله إنما أوجد هذه الاسباب وأمر بالاجتماع واللحمة فإن هذا مما يهيئ للنصر ، ولهذا تجتمع أمم الكفر على أمة الإسلام وتختلف أمة الإسلام على الفروع !.

والأمة ما اتفقت على الأصول وغضت الطرف عن الفروع فإنها أمة مرحومة ، وكلما كانت الأمة في أزمة شديدة فعليها أن تجتمع مع خصومها على الفروع فإذا اختصما اثنان على حائط وتنازعا ربما يسقط الحائط فيسقطان جميعا فلابد من الاجتماع والائتلاف .

والحد في مواضع الاختلاف أن تجتمع الأمة على أصل التوحيد فهذا هو الأصل وإن اختلفت في بعض فروع التفصيل من المسائل الخلافية ما وجد عدو من أعداء الله يخالفهم في أصولهم فاجتماعهم على الفروع وإن اختلفوا في هذا مطلب.

والشيطان لما علم ذلك لبّس عليهم أن بعض الخلافات بين المسلمين إنها خلافات أصول لا خلافات فروع وحينئذ نقد الأصل أنها ما اجتمعت على الأصول تتفق على الفروع ، وثمة طوائف لا يدخلون تحت هذه الدائرة مثل النصيرية والرفض فخلافهم في الأصول ، وكذلك ما يتعلق بالطوائف الأبعد ممن ينتمون للإسلام من العلمانية المحضة الذين لا يرون للشريعة حق وكذلك الليبرالية أو الشيوعية وكذلك اليهود والنصارى .

فينبغي على الأمة أن تجتمع وتعض الطرف عن اختلاف الفروع ما اجتمعت على الأصول ولهذا تجد العلماء عند خلافهم مع أمم تخالفهم في الاصول ينظرون للفروع على أنها متحدة ولهذا نجد في الغزوات لديار الكفر يشارك فيها الطوائف على اختلاف مذاهبهم من ظاهرية ومذاهب أربعة وكلامية وسلفية يدًا واحدة على من خالفهم .

لهذا لما أدرك الشيطان أن الأمة تأخذ بهذه القاعدة فنظر للفروع ألحقها للأصول فتوهموا أن الخلافات الفرعية أصلية وجعلوا ما ليس بمكفر مكفر وجعلوا كثر من النوازل موضع مفاصلة وريبة فتوجسوا واتهموا بعضهم بالعمالة .

وكذلك الغرب أوجد هذا التوجس في قلوب الجماعات والأمم في جانب العمالة يضرب هؤلاء بهؤلاء حتى لا يكونوا يدًا واحدة لأن الغرب يدرك أن عداء الإسلام عداء فاشل كما جاء في الحديث قال ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)[٤] فلابد من أن يضربوا بعضهم ببعض وللشيطان له جنود وأوزاع .

ما هي الطوائف التي تجمع في طوائف الإسلام ؟

يجتمع تحت راية الإسلام كل من اتفق في الأصول ولو خالف في الفروع ، لهذا تجد النبي ﷺ مع إدراكه للمنافقين في المدينة ومعرفته لأحوالهم ويدرك أن منهم من نفاقه أكبر في باطنه لكنه عامله بظاهره ولهذا قد يظهر لديك نفاق أكبر بباطن من أمامك لكن يظهر خلافه فلابد من معاملته بالظاهر لكن يُحذر منه ولا يُعزل عن جماعة المسلمين كما قال الله تعالى ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾(المنافقون : ٤) فلم يأمر الله نبيه ﷺ أن يقاتلهم بل هم قاتلوا مع النبي ﷺ وخذلوه ، والنبي ﷺ كان يعرف المنافقين وجعلهم مع الجماعة فلما خرج في غزوة أحد رجع عبد الله بن أبي بأكثر من ثلاثمائة وهو ثلث الجيش وذهب النبي ﷺ وقد أعد عدته وحدث ما حدث فلما رجع للمدينة لم يقتص ﷺ من عبدالله بن أبي ولم يخرجه ويعزله لأنه مازال يظهر الإسلام وإنما خلافه ببث الفرقة بالباطن وإخراخه في ذلك عن دائرة الإسلام يجعله يتحالف مع اليهود ويتحالف مع المشركين

[٤]) رواه مسلم ٢٨١٢ من حديث ابر بن عبد الله .

ويعلن عدائه ولهذا تجد النبي ﷺ مع علمه بكفره ومع علمه بما يكنه بباطنه إلا أن الله أمره بان يأخذ بالظاهر ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ (التوبة : ٧٤) أثبت الله – ولا أصدق من الله حديثا – أنهم كفار فليس ثمة بينة أعظم من ذلك ومع ذلك النبيﷺ مأمورٌ بالأخذ بالظاهر فلا يأخذ بما يعلم ولو كان يقينا ، وهذا من السياسة الشرعية في التعامل مع المنافقين وأهل الضلال ألا يتعامل الإنسان بالباطن وإنما عليه بالظاهر ويحذر من أفعالهم وذكر أوصافهم .

وفي هذا جملة من المنافع منها :

أنه لا يدعوهم لإخراج مزيد من الشر وإنما يبقون على اضماره .وألا يخرج عن مواجهتهم وإنما يحذر من أفعالهم بعيد عن تحديد أعيانهم بذكر أوصافهم والتحذير من طريقتهم ليحاصروا من جهة عقيدتهم وأساليبهم فيبتعد الناس عنهم فهذه طريقة نبوية .

فالنبي يعرف المنافقين ويعرف عددهم ويعرف مراتب النفاق كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَصْحَابِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا فِيهِمْ ثَمَانِيَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[٥] فهذا التحذير منهم جعل النبي ﷺ يسلك هذا المسلك ألا يخرج ما هو أكثر.

لهذا نقول إن بعض الدول أو الجماعات أو الأحزاب يجدون من داخلهم جماعات لديهم من الفسق أو الفجور أو النفاق أو نحو ذلك فعليهم أن يقوموا بإبعادهم وهم مأمورين باحتواء المسلمين ما أوجدوا الإسلام فالعزل لا يميت النفاق فهو ليس كالأعضاء الجسدية يموت بالعزل بل هذا يعمل ضدك عند العزل فالاحتواء أعظم من أن ينقلب ضدك فلم يعزل النبي ﷺ من رجع من غزوة أحد بل كانوا يصلون مع الجماعة إلا أن النبي ﷺ أبعدهم من مواضع الحظوة والقرب وأكثر من عتابهم بذكر صفاتهم ولم يحذر أحد من الزواج منهم ولا حضور ولائهم ، فعلى القادة أن يبعدوهم عن مواضع الولاية والاستشارة والقيادة حتى لا يفت المنافق من عضد المسلمين فهذه من الأمور المهمة في احتواء المنافقين حتى يبقوا داخل تلك الدائرة فلا ينضموا تحت ألوية أخرى من ألوية النفاق الصريح أو من ألوية الكفر كاليهود والنصارى وغيرهم .

٥) رواه مسلم في صحيحه ج ٨/ ص ١٢٨ حديث رقم: ٧٢١٢

التخفف من الذنوب

ثمة ذنوب وثمة طاعة وهي من أعظم الأسباب الشرعية لكفاية الله عبده فكلما تخفف الإنسان من ذنوبه حتى في مواضع الحاجة ينصره الله ﷻ لهذا يحث الله تعالى عباده على الاستغفار فيقول على لسان عباده ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران :١٤٧) سألوا الله تعالى الغفران والعفو من الإسراف ثم تثبيت والإقدام جاء بعد التخفف من الذنوب .

والقادة إذا لم يكونوا أصحاب ثبات وعبودية كانوا أسرع الناس انتكاسا فأثروا على الأمة ولهذا إذا أوحى الله لنبيه ووطنه بالعبودية قبل أن يبدأ بالرسالة ، فأمر الله ﷻ نبيه بالعبودية﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ*قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴾(المزمل :١-٢) أمره ﷺ بالعبودية حتى يحصن ويكون عظيم الثبات قبل أمره بالرسالة فتعبد في غار حراء مدة طويلة تفرغًا وخلوة قبل الرسالة وقبل أمره ﷻ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] وقبل أمره ﷻ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر (٩٤-٩٥)] .

وإذا نظرنا في سير الأنبياء وجدنا أنه ما من نبي إلا وطنه الله بالعبودية قبل أمره بالرسالة حتى يتحصن ويقوى في ذاته ، كحال موسى أول أمر أمره الله ﷻ به قال ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه : ١٤) فأمره بالعبودية ابتداء أن يتعبد لله ليقوى لعظم الرسالة التي ستأتيه .

وكذلك نبي الله إسماعيل عليه السلام يقول ﷻ عنه ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم : ٥٥) وكذلك نبي الله عيسى عليه السلام قال ﷻ ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم : ٣١) فالعبودية هي موضع ثبات تُقوّي الإنسان حتى يستطيع القيام بالرسالة .

فإذا تولى أحد ولاية وقيادة سواء كان عالم أو قائد أو كان مجاهد في سبيل الله ﷻ أيا كانت ولايته إذا تولى ولاية يكون لهذه الولاية ضريبة من البلاء والشدة فإذا كان ضعيف العبادة واليقين فكفاية الله ﷻ له تكون ضعيفة فينتكس ويضل ويزيغ وربما انحرف عن مراد الله فلحق الأمة تبعات كثيرة .

لهذا لما ثبت الله الأنبياء بالعبودية ثبت من دونهم فيمن جاء بعدهم والأنبياء داروا أممهم حتى لا يقع الضعف في الأمم ولهذا وجد من الأنبياء والشدة ما لا يوجد في غيرهم فلابد من جوانب العبادة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر : ٣٦) هي بمقدار العبودية تزيد بالعبادة فيزيد التسديد له وكذلك وجد فيهم من الثبات ما لم يكن في غيرهم فكلما زادت العبودية زاد التسديد ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال : ١٧) وكما جاء في الحديث (ولايَزَالُ عَبْدِيْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِيْ يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِيْ يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِيْ بِهَا)[٦] فهذا موضع الكفاية والتسديد وجاء في رواية (فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي) يعني بتسديد الله وإعانته فإذا سلك سبيل الله حقق على يديه من النتائج ما ليس في غيره فهذه جوانب الكفاية التي تكون من الله تعالى ولهذا جانب العبودية جانب عظيم من جوانب الثبات والنصرة والتمكين ينبغي أن يتحقق في الإنسان وكلما ولي الإنسان أمر من أمور المسلمين وجب أن يتحقق فيه أكثر وكلما كان الإنسان أكثر عبودية لله كان الله أعظم كفايةً له ولهذا لا يولي النبي ﷺ الولايات إلا لمن هم أولى الناس وأعظمهم ثباتا لتكون الكفاية .

[٦]) رواه البخاري من حديث أبي هريرة أبو هريرة - رقم : ٦٥٠٢ ، فتح الباري ١١.٣٤٠٤١ حديث رقم ٦٥٠٢ .

سلبيات العجلة

معرفة الغايات شيء ومعرفة العجلة في الوصول إليها شيء أخر ، وما من نبي من أنبياء الله تعالى إلا وقد أنزل الله عليه البلاء فصبر وتريث في رسالته ووصفه الله بالصبر ، ولهذا يقول الله ﷻ ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (يوسف : ١١٠) واليأس الذي يلحق لابد معه الصبر; يقول الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام : ٣٤) فيجعل ﷻ النصر للأنبياء بعد اليأس وبعد ظن الأتباع له بالتكذيب في الوعود التي كانت لهم فبين الله تلك المراحل التي لابد أن تأتيهم.

فلابد من التكذيب ولابد من تأخير النتيجة ليمحصك الله ويمكّن لك بعد بلاء شديد لأن الله إذا مكّن الأمة وهي مترفة ولم يلحقها أذى تطغى وتتجبر وليست العلة في الأنبياء فالأنبياء مطهرون ولكن أتباعهم يحتاجون لشيء من التطهير ومن يخلفهم أن يسلك مسلكهم فلابد من التريث وضده هو العجلة والعجلة إذا وجدت في الإنسان إذا طال به الأمد ولم يكن صابر متريث لحقه جملة من المضار منها تغيير الطريق وذلك أنه إذا بقي عقد أو عقدين ولم يصل لنتيجة قام بالبحث عن طرق ملتوية أو ربما طرق محرمة أو ربما انتكس عن الطريق بالكلية لأنه لم يصل للنتيجة فالله لم يوعدك بالوصول للنتيجة وإنما وعد الامة فربما تكون أنت في أول الطريق فغيّر في الوسائل ولكن الأصول حق وهو يطهرك .

ومن سلبيات العجلة ما يتعلق بتغيير الطريق والانتكاس عن الغاية فنجد نوح دام في طريقه لم يغير في شريعة الله ألف سنة إلا خمسين عام ولكن غيّر في أسلوب الدعوة ليلا ونهارا سرًا وجهرًا ولكن لم يغير في الرسالة فينبغي الاستمساك بالأصل ولو تأخر النصر لأنه إذا تعجل واستبطأ غير الطريق انتكس .

ومن سلبيات العجلة أيضًا ضرب الأصول لهذا تجد كثير من الطوائف بل والمجاهدين يستخدموا وسائل خاطئة فطال بهم الأمد ولم يحصلوا على نتائج فشككوا في الغايات وخرجوا عن الطريق بالاعتذار والانتكاس بينما أن وسائلهم خطأ وغايتهم صحيحة فوقع فيهم الخلل والزلل ، ولهذا لم يغير نوح من شريعة الله بعد ألف سنة إلا خمسين عام بل غير في الأسلوب ليلا ونهارا سرا وجهارا في التعامل في الدعوة فردا ى وجماعات بالليل والنهار .

وأما الأصل فينبغي الاستمساك به ولو تأخر لأنه إذا استعجل النتيجة يحدث الخلل وذلك أنه استبطأ فيقول طريقتي خطأ ومنهجي خطأ وغايتي خطأ ربما يكون على خطأ بالفعل وهذا وارد لكن ينبغي ألا يربط عدم ورود النتائج بخطأ الوسائل .

وكذلك من سلبيات العجلة عند الوسائل الخاطئة ضرب الأصول ولهذا تجد كثير من الطوائف وربما الجهادية يكون لديها وسائل خاطئة وطال بهم الأمد ولم يحصلوا على نتائج قاموا بضرب الغايات بالوسائل التي سلكوها فشككوا حتى قالوا لا يوجد جهاد طلب بالكلية وكتبوا مراجعات بينما وسائلهم هي الخطأ وغاياتهم صحيحة فضربوا تلك الغايات فوقع لديهم كثير من الخطأ والزلل .

والطريق قد بينه الله جل جلاله لنبيه كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ (يوسف :١٠٨) وبينه النبي ﷺ في قوله وفعله وتقريره فقد سلكه النبي ﷺ فغالبًا ما يحدث له مثال أو شبيه أو قريب منه حدث للنبي ﷺ أو ربما الخلفاء الراشدين وأضرابهم فالطريق موجود في هدي النبي ﷺ فعلى الإنسان أن يسلكه حتى يمكن له ، وقد أصّل النبي ﷺ الأصول وطبق التطبيقات وهذه التطبيقات منها ما هو موكول للنص ومنها ما هو موكول لقرائن الحال كحال صلح الحديبية ومنها ما هو موكول لدقة سياسة النبي ﷺ الشرعية ومنها ما يتعلق بالوحي فليس للإنسان أن يكل أمره للعقل المجرد من الماديات الحسية فينظر في السنن الكوني لتتحقق الغاية.

الصبر والتريث

الصبر داخل في التريث فلا يلزم من سلامة الوسائل الوصول للغايات ;ولهذا يقول النبي ﷺ (يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)[٧] فالأنبياء وسائلهم صحيحة لكن الغايات إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا اجتمعت أركان الحجة فتجد من أنبياء الله من جاء معه واحد أو اثنين أو أكثر أو أقل ، نقول إذا قامت الحجة واشتركت اللغة والوحي من الله ولا أعظم بيان منه لخلقه فالنتائج لله جل جلاله ، وقد تجد من الأولياء من هو أتباعه أكثر من أتباع بعض الأنبياء ممن لم يتبعهم أحد ، فهل هذا أفضل من النبي الذي لم يتبعه أحد ؟ نقول لا بل النبي ﷺ أفضل منه ولو لم يتبعه أحد لأن العبرة في تأدية الرسالة واستفراغ الوسائل فيعطي الله من الأجر ما لا يتحقق لبعض من يفتح الله على أيديهم ، ولهذا تجد المجددين في الأمة كالأئمة الأربعة الإمام أحمد والإمام مالك والإمام الشافعي ومن جاء بعدهم كابن تيميه وغيره هؤلاء الذين جددوا كان لهم أتباعهم كثر ، فهل هؤلاء أفضل من نبي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد ؟ لا بل النبي أفضل لأن الله تعالى جعل الغايات له فإذا صحت الوسائل واستفرغ الإنسان وسعه يؤتيه من منازله العليا والأجر العظيم ما الله به عليم ، فعلى الإنسان ألا يستعجل النتيجة ويصبر على الوسائل.

٧) رواه البخاري ١٦٣/١(٥٧٠٥) وأحمد ٢٧١/١(٢٤٤٨) ومسلم ١٣٧/١(٤٤٧) والتِّرْمِذِيّ ٢٤٤٦ والنَّسائي في الكبرى ٧٥٦٠ .

التدرج

التدرج من الأمور المهمة وما يُتدرج فيه فثمة شيء لا يقبل التدرج وهو الأصل في توحيد الله ﷻ فهو جملة واحدة وأما ما عدا التوحيد يتدرج فيه بحسب الحاجة كما جاء في حديث معاذ بن جبل وأبي موسى لليمن فالتوحيد من الأصول الذي لا يجوز للإنسان أن يقسّمه فيقول أؤمن بكذا ولا أؤمن بكذا ، نقول لا توجد مساومة على التوحيد كما في قوله ﷻ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥) فالإيمان لابد أن يكون تام .

وأما العمل والتفريط في الصلاة والصيام والحجاب فيكون بحسب ما يكون في الأمة يتدرج فيها ولا يأتي فيها جملة ; ولهذا جاء في الحلية عن عمر بن عبد العزيز (إنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة)[٨] وهذا كان في الزمن المتقدم فكيف بالزمن المتأخر التي تحتاج للتروي في الفروع .

وكذلك التدرج يكون في توجيه الرسالة يبدأ بالأقربين ثم يتوسع لمن بعدهم كما في قوله ﷻ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] .

بدأ بالأقربين ثم توسع لمكة كما في قوله ﷻ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر (٩٤-٩٥)] ثم توسع لمن جاء بعدهم من الوفود وفي عكاظ ومجنة وغيرها في مواضع الدعوة حتى توسع فأصبح ﷺ يرسل الناس إلى الآفاق .

٨) حكاها الشاطبي في كتابه الموافقات ٢\١٤٨ .

الركون إلى لأعداء

ذكر الله أن الركون إلى الأعداء سببٌ في رفع ولاية الله وكفايته لقوله ﷻ ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (هود : ١١٣) فجعل الله ثمرة ذلك رفع الكفاية والولاية والنصرة لعباده ؛ ولهذا موالاة الكافرين على المؤمنين سبب رفع الولاية بل جعله الله ناقض من نواقض الإسلام كما في قوله ﷻ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(المائدة :٥١) فالله ﷻ قد جعل ذلك حكمًا واحدًا فيهم ، فمن والى أمة كافرة على المسلمين فقد أخذ حكمهم وارتفعت عنه نصرة الله فالركون للظالمين في إعزاز الدنيا رفعٌ لنصر الله ﷻ وولايته وتأييده لعباده .